الأمر ودلالته في ديوان البحتري

الطالب: بلجة نور الدين
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس

التراكيب النحوية الطلبية (الأمر والنهي....) لا يعتريها أي عدول أو تغيير نحوي أو لغوي لا يمسّها طارئ ما في الإسناد من جهة طرفي المسند إليه والمسند وحتى القيود المتصلة بهما. إن هذه التراكيب تساق تامة وكاملة وفق نظام اللغة العربية المتعارف عليه، وهذا ما نجده بنسب متفاوتة في النصوص النثرية ذات التعبير المباشر التقريري والنصوص الشعرية القديمة والحديثة. لكن في الوقت ذاته فإن هذه التراكيب في العديد من الأحيان توظّف من قبل المُخاطَب لا يريد منها الظاهر المعلوم الذي تصرِّح به ، و إنما يريد منها مقاصد ورسائل أخرى ، لا تنال بمجرّد القراءة الأولى ، بل تتطلّب قراءات متعددة تشوبها المشقة والعناء ، التدبر والتفكير، يستنهض فيها القارئ بكل ما يملك من موروث ومكتسب ، وخبرات وزاد . وهذا ما سنتناوله في أسلوب الأمر.

الأمر:

أسلوب الأمر واحد من الأساليب التعبيرية التي لا يمكن أن يستغني أي شاعر في أيّ فن نظم فيه ، وفي أيّ غرض استرسل فيه ، فهو إمّا متوجّه به إلى صديق أو عدو ، إلى فرد أوجماعة ، إلى من هو أسفل منه ، أو من هو متساو معه في المكانة ، أو من هو أعلى منه مرتبة . وقد يتوجّه به إلى نفسه في حالات معينة . وقد عُدَّ واحدا من أهم الأسس التي ينبني عليه الخطاب الشعري ، فلا غرو أن تكون ((قواعد الشعر أربع أمر ونهي وخبر واستخبار[1]))، من هذه الرؤية سارع علماء البلاغة إلى

متابعة هذه الصيغة من مختلف الجهات ، فقرّر أن الأمر ((اصطلاحا ما قرن باللام الجازمة أو ضمن معناه ، ولغة حصول الثبوت في الخارج بذلك على وجه الاستعلاء ز والأظهر أن صيغة الأمر موضوعة لذلك لتبادر الفهم عند سماعها إلى الأمر وتوقف ما سواه على القرينة ، ولاتفاقهم على إضافة الصيغ إلى الأمر دون غيره ، ولا شبهة أن الطلب على وجه الاستعلاء يستدعي إيجاب المطلوب ، فإن كان الأمر من الأعلى استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب ، وإلا أفاد الطلب في ضمن الدعاء أو الالتماس أو الإباحة أو التهديد أو التحدّي أو إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت الطلب إلى حدّ كان المرضى مطلوبا [2]))، فالمقاصد من وراء توظيف أسلوب الأمر جمّة ، وهو ما سنجتهد في بيانه من خلال نماذج شعرية متنوعة .

يقول البحتري:

وقد قلت للمعلي إلى المجد طرفه دع المجد فالفتح بن خاقان شاغله

سنان أمير المؤمنين وسيفه وسبب أمير المؤمنين ونساله

يشب به للناكثين حروبه وتدلوا به للخاطبين نوافله[3]

وردت هذه المقطوعة في قصيدة " حلال كالمدام و شمائل كالنسيم" ، تقع مباشرة بعد انتهاء الشاعر من المقدمة التي افتتح بها قصيدته والتي ضمنها غزل بليلى عماده الحب والشوق والبكاء و الهجران، يستهل الشاعر مقطوعته بواو الاستفتاح التي تليها الأداة(قد) و هي من مؤكدات الخبر، الملتصقة مباشرة بالجملة (قلت) والقول هنا متوجه به إلى شخص أورده بمجموعة من الأوصاف : الإعلاء بما يحمل من إرادة ورغبة و طموح من أجل الوصول إلى المجد .

مقولة القول ورد في بيت العجز (دع المجد) و الأسلوب هنا أمر، مكون من:

- فعل الأمر : دع
- الفاعل: ضمير مستتر يعود إلى المأمور (المعلي إلى المجد طرفه)

- المجد: مفعول به منصوب وهو ماهية الأمر وعمدة الأسلوب.

وهكذا تتضح الأركان الأربعة لأسلوب الأمر: الشاعر، فعل الأمر: دع، المأمور: العلى إلى المجد طرفه، المأمور به: المجد، ولا ينتهي سياق الأمر بانتهاء الجملة (دع المجد) والقرينة الأولى الدالة على ذلك أداة العطف (الفاء) و بناء على ذلك فالجملة التالية الواردة بعد الجملة الأولى (الفتح بن خاقان شاغله) معطوفة عليها و لا يخفى على الدارس النحوي والبلاغي والأسلوب ما لجملة العطف الثانية من علاقة قوية بالجملة الأولى فالجملة المعطوفة عليها (دع المجد) والجملة المعطوفة هي (فالفتح بن خاقان شاغله) أن الأمر الوارد في جملة (دع المج) يبدوا أنه غير مقصود لذاته بل يراد منه عدة معان منها: الاستنكار لهذا السلوك والاستهزاء من هذا الشخص والتقريع له فالمجد ليس منزلته ولا مكانته ، والمجد ليس بمستحق له ولا يمكن أن يصل أو يصير إليه فهو دون ذلك وأبعد منه بكثير، و تأتي الجملة المعطوفة لتعضد هذا المعنى و تقويه وكأنها سيقت لتبرر الأمر وتحتج للطلب، ولكي تكشف عن صوابه وسداد ما دام أن الوزير الفتح بن خاقان هو شاغله، وذكر اسم العلم لم ترد فقط للتحديد والتعيين والبيان بل جيء به للتخصيص والإفراد فهناك مجد واحد وهناك شاغل له واحد مخصص به.

ويلقي الشاعر من خلال توظيفه لعبارة (شاغله) عدة إيحاءات في ذهن المتلقي فمكان المجد مملوء و خيره مشغول، لا مكان فيه لأحد و لا حظ فيه لآخر قط، و كان المجد وجد للفتح بن خاقان، و هذا الأخير و جد له . بمثل هذا الشحن الإيحائي لأسلوب الشعر يتجلى لنا ((طبع الشاعر وذوقه ، فهو الذي يطبع العبارة بطابع القوة أو الجمال ، ويكسبه روح الشاعر وشخصيته الفنية الممتازة ، وفيها يحار النقاد ويسمّنها مرة عبقرية الشاعر ، ومرة شيئا يدرك ولا يمكن تعليله وتفسيره ، تدركه

في قوة المتنبي ، وجمال البحتري ، ورقة جرير في النسيب ، وسهولة أبي العتاهية ، وبهاء زهير [4]))

ومادام الأمر على هذاه الحال فمحاولة اعتلاء سلم المجد محاولة عابته وتافهة وفاشلة، وصاحبها لا يعرف قدر نفسه وقد الوزير الفتح بن خاقان الذي يملك شتى المؤهلات التي تمكنه من اعتلاء عرس المجد، ويورد الشاعر البيتين التاليين للبيت الأول مفسرا سبب استحقاق ابن خاقان للمجد، فالقوة المادية من سيف وسنان موجودة ، و القوة الأخلاقية من كرم و سخاء متوفرة كذلك .

يقول البحتري:

وما أقفلت عنا جوانب مطلب نحاوله إلا افتتحناه بالفتح

فـداؤك أقوام سبقت سراتهم إلى القمّة العلياء،والخلق السمح

و عدت، فأوشك نجح وعدك ،إنه من المجد إعجال المواعيد بالنجح

وأنت ترى نصح الإمام فريضة وإخباره عني سبيل من النصح[5]

وردت هذه المقطوعة في قصيدة (بدر الأفق) بعد البيت السادس، والقصيدة جميعها متكونة من إحدى عشر بيتا، أسلوب الأمر يقع في عجز البيت الثالث (أوشك نجح موعدك) و عناصر هذا الأسلوب هي:

- صيغة الأمر: فعل الأمر (أوشك)
- الفاعل: الضمير المستتر العائد إلى الفتح بن خاقان وهو المأمور
- نجح موعدك: المفعول به المتبوع بالمضاف إليه الأول (موعد) والمضاف إليه الثاني (الضمير المتصل وهو كاف المخاطب المفرد)

و المفعول به مع المضافين هما ماهية الأمر و جوخرة فهم المأمور به.

- والآمر هو الشاعر المخاطب المريد إنجاز الوعد من قبل المخاطب (ابن خاقان) لقد سبقنا قبل البيت الثالث الذي ورد فيه أسلوب الأمر البيتين الأول و الثاني و ذلك لأننا نرى أنها شيدد الصلة بأسلوب الأمر.

ففي البيت الأول الشاعر يؤكد أنه ما في حاجة تعتبر تحقيقها و ما... صعب إنجازه و تحقق إلا و تتبشر و تسهل بمجرد تدخل الفتح بن خاقان ، وفي الثاني يقرران أن الناس الذي يحيطون به و يحبون ... دونه في الخلق و في باب المجد، بعد ... بأن وقد وعد بعد هذا كله ثاني بطلب (أوشك نجح موعدك) فهو لا يصرح ... المأمور به إنه موعد فاللفظ هنا عام غير خاص و لا منفذ مما يكشف شدة الطلب وقوة الحاجة و يفهمهم من فعل الأمر أوشك: اسع، تحرك، بادر، سابق، ويأتي أسلوب التوكيد الوارد بعد الأسلوب الآخر ليقوي الأمر و يرفع من قيمته والبيت الثالث ... في أن يسيء المخاطب الفهم أو بحسب ذلك أنه محض النصح.

يقول البحتري:

عش حميدا ، فما ندم زمانا جارنا فيه فعلك المحمود

أخذت أمتها من البؤس أرض،فوقها ظلّ سيبك الممدود[6]

هذه المقطوعة من قصيدة (خلال من الندى و الجود) و ردت بعد البيت الخامس عشر – يقع أسلوب الأمر بداية صدر البيت الأول (عش حميدا) و يتركب هذا الأسلوب من العناصر التالية:

- صيغة الأمر: فعل الأمر (عش)
- الفاعل: الضمير المستتر الذي يعود إلى الضمير المخاطب المفرد المذكر (أنت) والمقصود هنا الوزير الفتح بن خاقان ،و هو الأمر المأمور.
- الحال المنصوب وقد وردت مفردة(حميدا) و هي العنصر المأمور به.
- الآمر: هو الشاعر البحتري المادح.

الأمر هنا ينبغي ألا يفهم على ظاهرة و إنما يفهم منه الدعوة اللطيفة والتمني اللين بأن يعيش الوزير عيشة حميدة راغب فيها كل واحد وراض عنها كل شخص وفرح بها كل فرد، عيشة حميدة راضية مرضية يحيط بها الاطمئنان والراحلة ويحفها القرار والسكينة ، وهذه العيشة الحميدة التي يتمناها الناس للفتح بن خاقان لم تلد من فراغ و إنما أملأها الواقع و أوجبها الحال و فرضها فرضا رغبة و رهبة ما يصدر من أفعال حميدة من لدن الوزير ، إذن فتمني العيشة الحميدة من الشاعر للوزير المخاطب لها ما يبررها و يؤسس لها ، و بهذا كان الشاعر ذكيا في كلامه مقنعا بخطابه به ، فلغة البحتري بما تحمل من لطف وفطانة تكشف لنا بكيفيتها ((أن اللغة سوى مظهر من مظاهر الوظيفة الرمزية ، مصوغة من طرف الأنسان في إطار تفاعلاته مع الوسط المادي والاجتماعي [7])) ، مباشرة بعد الجملة التي احتضنت أسلوب الأمر، أورد الشاعر جملة أخرى عليها (فما ندم زمانا جادنا فيه فعلك المحمود) فلان فعله كان خيرا وبرا وكان نفعا وصلاحا حمده الناس وشكروه و أثنوا عليه، استحق بكل إخلاص و صدق أن يعيش عيشة من جنس فعله، وهنا يلتفت الفكر إلى حكمة بليغة تضمنها البيت بطريقة غير مباشرة و هي أن فعل الخير لات يورث صاحبه إلا خيرا، وإذا حمد الفعل حمدت العيشة والحياة والعكس فالشر لا يفضي إلى الشر، و إذ سخط عن الفعل شانت العيشة.

و إذا انتقلت إلى البيت الثني فإننا نلقي الشاعر يقدم تفسيرا جميلا كاشفا خلاله السبب الذي جعله يطلب له العيشة الحميدة ، إن البلاد تعيش في امن وسلام و العباد يعمهم العطاء الواسع و الخير المديد الذي لا يفتر و لا ينقطع .

الهوامش:

[1] ـ ثعلب أحمد بن يحيى ، قواعد الشعر ، تح زمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1995 ، ص31 .

[2] ـ المصباح في المعاني والبيان والبديع ، تح عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 2001 ، ص 152 .

[3] – البحتري ، الديوان، ج 2 ، ص 214 .

[4] ـ أحمد الشايب ، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، ط 11 ، 2000 ، مكتبة النهضة المصرية ، ص 72 .

[5] – البحتري ، الديوان،ج 1 ، ص 281 .

[6] – البحتري ، الديوان، ج 2 ، ص 214 .

[7] ـ عمر أوكان ، اللغة والخطاب ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2001 ، ص 24 .